الدلالة المعنوية

وللغة العربية خصائص ومميزات بزت بها غيرها لا تدانيها فيها لغة من اللغات ، فانت تستطيع ان تصنع من مفرداتها المأنوسة قطعا تسحر الالباب وتأخذ بالافهام وتتالق بالعقول فى عالم السمو والسحر والابداع .

وعناية العربية بجمال الالفاظ وحسنها ، لا لذات الالفاظ . وانما اهتماما من اللغة العربية بالمعنى . وذلك حتى يقع القول من نفس السامع الموقع المرجو الذي يهيىء له الحالة النفسية التي تحفزه الى الحركة والعمل وتبعث به الى المقصود فى ثوب مفوف ووسام لامع جذاب اخاذ ساحر .

ولقد ثبت من المقارنة بين اللغات أن اللغة العربية من اكثر اللغات دلالة معنوية بل ان الكثير من الالفاظ العربية قد فقد الدلالة الحسية .

قال جورجي زيدان : فالفعل « قضى » معناه « حكم » والاصل فيه القطع الحسي والفعل « عقل » معناه « فهم » وهو ماخوذ من عقل الناقة اى ربطها ، والفعل ادرك الاصل فيه البلوغ الحسي فيقال : فلان ادرك القطار اى لحقه ، والفعل « بلغ » وضع اصلا للدلالة على الوصول الحسي فى المكان والزمان ، بل ان الاصل فى معنى الفصاحة قولهم : فصح اللبن اذا ذهبت رغوته ، ثم قيل : فصح بمعنى وضح ، « والراى » اصله من « راي » اى شهد بعينه (1) .

وفى العربية ابنية وصيغ وقوالب دالة على معان وصفات واحوال . فما كان على فعلان دل على الحركة والاضطراب كالنزوان والغليان والضربان والهيجان . وما كان على فعلان دل على صفات تقع من احوال كالعطشان والغرثان والشبعان والريان والغضبان ، وما كان على افعل دل على صفات بالالوان نحو : ابيض واحمر واسود واصفر واخضر وازرق ، وكذلك العيوب تكون على افعل نحو احول واعور واقرع واقطع واعرج واخيف ، وتكون الادواء على فعال كالصداع والزكام والسعال والخناق والكباد .

والاصوات اكثرها على هذا كالصراخ والنباح والضباح والرغاء والثغاء والخوار ، وفصل آخر منها على فعيل كالضجيج والهرير والهدير والصهيل والنهيق والزئير والضغيب والنعيق والنعيب والخرير والصرير . وحكاية الاصوات على فعلة كالصرصرة والقرقرة والغرغرة والقعقعة والخشخشة ، واطعمة العرب على فعيلة كالسخينة والعصيدة واللفيتة والحريرة والنقيعة والعقيقة ، واكثر الادوية على فعول كاللعوق والسعوط والوجور واللدود والذرور والفطور والنطول ، واكثر العادات فى الاستكثار على (مفعال) نحو مطعان ومطعام ومضراب ومضياف ومكثار ومهذار وامراة معطار ومذكار ومئنات ومئناث (2) ، وصيغة الافعال واوزانها فى اللغة العربية عامل من عوامل ثروة اللغة وقدرتها على الدلالة على فروق وظلال تنضاف الى المعنى الاصلي دون زيادة فى اللفظ ومع الاحتفاظ بطابع التركيز والدقة ، قال الثعالبي فى الاكثر الاغلب (فعل) يكون بمعنى التكثير كقوله عز ذكره « وغلقت الابواب » ، وقوله : « يذبحون ابناءكم » ، وفعل يكون بمعنى افعل نحو خبر واخبر وكرم واكرم ونزل وانزل ، ويكون مضادا له نحو افرط اذا جاوز الحد وفرط اذا قصر ، قال الشاعر :

لا خير فى الافراط والتفريط
كلاهما عندي من التخليط

وقلت فى كتاب المبهج : اياك والافراط الممل ، والتفريط المخل .

و (افعل) يكون بمعنى فعل نحو اسقى وسقى وامحضه الود ومحضه وقد يتضادان نحو نشط العقدة اذا شدها وانشطها اذا حلها .

(وفاعل) يكون بين اثنين نحو : ضاربه وبارزه وخاصمه وحاربه وقاتله ، ويكون بمعنى فعل كقوله عز وجل : « قاتلهم الله » اى قتلهم .

(وتفاعل) يكون بين اثنين وبين الجماعة نحو تجادلا وتناظرا وتحاكما ، ويكون من واحد نحو تراءى له ، ويكون بمعنى اظهر نحو : تغافل وتجاهل وتمارض وتساكر اذا اظهر غفلة وجهلا ومرضا وسكرا ، وليس بغافل ولا جاهل ولا مريض ولا سكران .

(وتفعل) يكون بمعنى فعل نحو تخلصه اذا خلصه كما قال الشاعر :

تخلصنى من غفلة الغي منعما
وكنت زمانا فى ضمان اساره

وكما قال : عمرو بن كلثوم :

تهددنا واوعدنا رويدا
متى كنا لامك مقتوينا ؟

ويكون بمعنى التكلف نحو تشجع وتجلد وتحكم ، ويكون لاخذ الشيء نحو : تأدب وتفقه وتعلم ، ويكون تفعل بمعنى : افعل نحو تعلم بمعنى اعلم كما قال القطامي :

تعلم ان بعض الشر خير
وان لهذه الغمم انقشاعا

اى : اعلم

(واستفعل) يكون بمعنى التكلف نحو استعصم اى تعظم واستكبر اى تكبر ، ويكون استفعل بمعنى الاستدعاء والطلب نحو استطعم واستسقى واستوهب ويكون بمعنى فعل نحو استقر اى قر،ويكون بمعنى صار، نحو استنوق الجمل واستنسر البغاث .

(وافتعل) يكون بمعنى فعل نحو اشتوى اى شوى واقتنى اى قنى اى كسب ، ويكون لحدوث صفة نحو : افتقر وافتتن ، واما انفعل فهو فعل المطاوعة نحو : كسرته فانكسر وجبرته فانجبر وقلبته فانقلب (3) ، قال ابن جنى : « فاذا رايت العرب اصلحوا الفاظها ـ العربية ـ وحموا حواشيها وهذبوها وصقلوا غروبها وارهفوها فلا ترين ان العناية اذ ذاك انما هي بالالفاظ ، بل هي عندنا خدمة للمعاني وتنويه وتشريف ونظير ذلك اصلاح الوعاء وتحصينه وتزكيته وتقديسه وانما المبغى بذلك منه الاحتياط للموعي عليه وجواره بما يعطر بنشره ولا يعر جوهره كما قد تجد من المعاني الفاخرة السامية ما يهجنه ويفض منه كدرة لفظه وسوء العبارة عنه (4) .

وذلك ان العرب كما تعني بألفاظها فتصلحها وتهذبها وتراعيها وتلاحظ احكامها بالشعر تارة وبالخطب اخرى وبالاسجاع التي تلتزمها وتتكلف استمرارها ، فان المعاني اقوى عندها واكرم عليها وافخم قدرا فى نفوسها فاول ذلك عنايتها بألفاظها فانها لما كانت عنوان معانيها وطريقا الى اظهار اغراضها ومراميها اصلحوها ورتبوها وبالغوا فى تحبيرها وتحسينها ليكون ذلك اوقع لها فى السمع واذهب بها فى الدلالة على القصد (5) .

فكأن العرب انما تحلي الفاظها وتدبجها وتوشيها وتزخرفها عناية بالمعنى التي وراءها وتوصلا بها الى ادراك مطالبها ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان من الشعر لحكمة ، وان من البيان لسحرا فاذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعتقد هذا فى الفاظ هؤلاء القوم التي جعلت مصائد واشراكا للقلوب وسببا وسلما الى تحصيل المطلوب ، عرف بذلك ان الالفاظ خدم للمعاني ، والمخدوم لا شك اشرف من الخادم ، والاخبار فى التلطف بعذوبة الالفاظ الى قضاء الحوائج اكثر من ان يؤتي عليها او يجشم للحال تعب بها (6) .

واعلم انه لما كانت الالفاظ للمعاني ازمة وعليها ادلة واليها موصلة ، وعلى المراد منها محصلة عنيت العرب بها فاولتها صالحا من تثقيفها واصلاحها (7) ، وشيء آخر يجعل اللغة العربية اكثر مرونة فى الواقع من غيرها . وهو انها اكثر اللغات قبولا للاشتقاق . والاشتقاق باب واسع تستطيع به اللغة ان تؤدي معاني الحضارة ، والاشتقاق فى العربية يقوم بدور لا يستهان فى تنويع المعنى الاصلي وتلوينه اذ يكسبه خواص مختلفة بين طبع وتطبع ومبالغة وتعدية ومطاوعة ومشاركة ومبادلة مما لا يتيسر التعبير عنه فى اللغات الآرية مثلا الا بالفاظ خاصة ذات معان مستقلة وصيغ الالفاظ العربية تفرق تفرقة واضحة بين الجواني والبراني وبين ما هو حركة فى النفس وما هو

حركة فى الجوارح . العربية تفرق مثلا بين الكبر والتكبر والعلم والتعلم والفقه والتفقه .

وقد التفت المستشرق الفرنسي كرادوفو الى هذه الظاهرة فلم يسعه الا أن ينوه بها فى كتابه عن الغزالي فقال : « لقد ميز الغزالي بين الكبر الداخلي » والكبر الخارجي . الداخلي هو استعداد فى النفس ، والخارجي ناتج من افعال الجوارح ، واللفظ الفرنسي الذي يدل على معنى الكبر هو Orgueil اما التكبر فاولى ان يكون مرادفه الفرنسي Superbe

ولاحظ كارادوفو ايضا أن هذه الفروق المعنوية الدقيقة التي تحملها الفاظ اللغة العربية ليس من الميسور نقلها فى لفظ واحد الى اللغات الاخرى وخلص من هذه الملاحظة الى التنويه بما تنطوي عليه العربية من قدرة ذاتية على التحليل الفلسفي العميق ، ما دام ان احداث تغيير طفيف فى بنية اللفظ العربي يسمح لتلك اللغة بأن تميز بين الحالة النفسية وبين العادة البدنية التي تطابقها (8) . ولا نزاع فى ان منهج اللغة العربية الفريدة فى الاشتقاق قد زودها بذخيرة من المعاني لا يسهل اداؤها فى اللغات الاخرى فى نطاق التركيز الجواني الذي هو شيمة الاسلوب العربي الاصيل ، وقد لاحظ السيوطي هذه الزيادة فى المعنى المشترك حين عرف الاشتقاق بأنه اخذ صيغة من اخرى مع اتفاقهما معنى ومادة وهيئة تركيب ليدل بالثانية على معنى الاصل بزيادة مفيدة لاجلها اختلفا حروفا او هيئة (9) .

وجلي ان : هذه الطريقة فى توليد الالفاظ بعضها من بعض تجعل من اللغة جسما حيا تتوالد اجزاؤه ويتصل بعضها ببعض بأواصر قوية واضحة وتغني عن عدد ضخم من المفردات المفككة المنعزلة التي كان لا بد منها لو عدم الاشتقاق ، وان هذا الارتباط بين الفاظ العربية الذي يقوم على ثبات عناصر مادية ظاهرة وهي الحروف او الأصوات الثلاثة وثبات قدر من المعنى سواء ماديا ظاهرا او مختفيا مستترا خصيصة عظيمة من خصائص هذه اللغة تشعر متعلمها بما بين الفاظها من صلات حية تسمح لنا بالقول بأن ارتباطها حيوي وان طريقتها حيوية توليدية وليست آلية جامدة (10) .

قال الدكتور عثمان أمين : واذا اردنا مثلا على ثروة العربية بهذا الضرب من الاشتقاق والتصريف فلننظر الى كلام رجل من المشتغلين بالعلوم الطبيعية . فهو يرى فى كلمة مثل « صهر » اى آذاب الجسم بالنار انه يستفاد لتأدية هذا المعنى بكلمات دقيقة من حالات الجسم تخالف غيرها من الحالات فنقول انصهر واستصهر وتصاهر ومنصهر ومصهور (11) . وفى العربية منهاج آخر مخالف للغات الاخرى ، فان العربية تدل بالحركات على المعاني المختلفة . من غير ان تكون تلك الحركات اثرا لمقطع او بقية من اداة فيكون ذلك فى وسط الكلمة واولها وآخرها . فهم يفرقون بالحركة بين اسم الفاعل واسم المفعول فى مثل مكرم ومكرم وبين فعل المعلوم وفعل المجهول ، نحو : كتب وكتب ، وبين الفعل والمصدر فى مثل علم وعلم ، وبين الوصف والمصدر فى مثل فرح وفرح ، وبين المفرد والجمع فى مثل اسد واسد ، وبين الفعل والفعل فى مثل قدم وقدم ، وبين الاسم والاسم فى مثل : سحور وسحور .

المصـــــــادر

1 — انظر الفلسفة اللغوية جرجي زيدان ، ص 110 الطبعة الثالثة القاهرة 1923 .
2 — فقه اللغة للثعالبي ، ص 553 ـ 555 ، المكتبة التجارية الكبرى القاهرة .
3 — المرجع السابق ، ص 549 ـ 553 .
4 — الخصائص لابن جنى ، جـ 1 ، ص 225 ، طبعة الهلال 1913 القاهرة .
5 — الخصائص لابن جنى ، ص 223 .
6 — نفس المصدر السابق ، ص 228 .
7 — المصدر السابق ، ص 317 .
8 — فلسفة اللغة العربية ، الدكتور عثمان امين ، المكتبة الثقافية 144.
9 — المزهر للسيوطي ، طبعة دار احياء الكتب العربية .
10 — فقه اللغة محمد المبارك ، دمشق ، ص 61 .
11 — فلسفة اللغة العربية عثمان امين ، ص 48 .
12 — احياء النحو ابراهيم مصطفى ، 136 ، القاهرة ، ص 45 .